مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّادِسَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

فَمِنْ دِيَانَاتِ هَؤُلَاءِ عِنْدَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ: الْوَثَنِيَّةُ، وَكَانَتِ الْيَهُودِيَّةُ قَدْ ظَهَرَتْ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ عَلَىٰ إِثْرِ هِجْرَةِ الْيَهُودِ مِنَ الشَّامِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ؛ فِرَارًا مِنْ غَزْوِ بُخْتُنَصَّرَ الْبَابِلِيِّ، وَتَخْرِيبِهِ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ سَنَةَ سَبْعٍ، وَثَمَانِينَ وخَمْسِمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَفِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ بِسَبَبِ الْغَزْوِ الرُّومَانِيِّ لِفِلَسْطِينَ سَنَةَ سَبْعِينَ مِنَ الْمِيلَادِ، وَعَلَىٰ إِثْرِ تِلْكُمَا الْهِجْرَتَيْنِ اسْتَقَرَّ عَدَدٌ مِنْ طَوَائِفِ الْيَهُودِ فِي شَمَالِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالْحِجَازِ؛ فِي يَثْرِبَ، وَتَيْمَاءَ، وَخَيْبَرَ، وَغَيْرِهَا، فَأَنْشَئُوا الْقُرَىٰ، وَأَقَامُوا الْحُصُونَ وَالْقِلَاعَ.

وَكَانَ لِلْيَهُودِيَّةِ فِي جَنُوبِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ عَلَىٰ يَدِ تُبَّانِ أَسْعَدَ أَبِي كَرِبٍ مَلِكِ الْيَمَنِ الَّذِي مَرَّ بِالْحِجَازِ خِلَالَ بَعْضِ حُرُوبِهِ، وَاتَّصَلَ بِالْيَهُودِ فِي يَثْرِبَ، وَاعْتَنَقَ الْيَهُودِيَّةَ، وَقَدِمَ مَعَهُ بَحْبَرِينِ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ إِلَىٰ الْيَمَنِ، وَكَانَ لَهُمَا أَثَرٌ فِي نَشْرِ الْيَهُودِيَّةِ بِالْيَمَنِ.

وَأَمَّا النَّصْرَانِيَّةُ: فَكَانَ وُجُودُهَا فِي جَنُوبِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي نَجْرَانَ عَلَىٰ يَدَيْ فِيمْيُونَ، وَهُوَ أَحَدُ عُبَّادِ النَّصَارَىٰ فِي الشَّامِ، وَكَانَ زَاهِدًا مُجَابَ الدَّعْوَةِ، وَكَانَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْقُرَىٰ يُخْفِي عِبَادَتَهُ، كُلَّمَا ظَهَرَ أَمْرُهُ فِي قَرْيَةٍ خَرَجَ مِنْهَا إِلَىٰ

غَيْرِهَا، أَسَرَهُ رِجَالُ بَعْضِ الْقَوَافِلِ التِّجَارِيَّةِ، وَبَاعُوهُ فِي نَجْرَانَ، وَقَدْ لَفَتَ بِعِبَادَتِهِ وَزُهْدِهِ نَظَرَ مَنِ اشْتَرَاهُ، فَدَخَلَ فِي دِينِهِ، وَ(فِيمْيُونُ) هَذَا هُوَ الَّذِي هَدَىٰ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ الْغُلَامَ الْمُؤْمِنَ عَبْدَ اللهِ بْنَ الثَّامِرِ الَّذِي دَعَا أَهَالِيَ نَجْرَانَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَتَوْحِيدِهِ، فَآمَنُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ بِاللهِ، وَدَخَلُوا النَّصْرَانِيَّةَ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ عِيسَىٰ عليه السلام مِنَ الْإِنْجِيلِ، وَلَكِنَّ حَاكِمَ حِمْيَرَ ابْنَ تُبَّانَ أَسْعَدَ ذَا نُوَاسٍ كَانَ مُتَعَصِّبًا لِلْيَهُودِيَّةِ، فَسَعَىٰ لِإِجْبَارِ أَهْلِ نَجْرَانَ؛ لِاعْتِنَاقِ الْيَهُودِيَّةِ بِالْقُوَّةِ، فَلَمَّا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ خَدَّ الْأُخْدُودَ، وَأَحْرَقَهُمْ فِيهِ بِالنَّارِ.

وَهُمْ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ [البروج: ٤- ٥].

وَتَمَكَّنَ بَعْضُ مَنْ نَجَا مِنَ الْقَتْلِ مِنَ الْفِرَارِ إِلَىٰ بِلَادِ الرُّومِ، وَاسْتَنْجَدَ بِقَيْصَرِ الرُّومِ، فَبَعَثَ مَعَهُ رِسَالَةً إِلَىٰ مَلِكِ الْحَبَشَةِ النَّصْرَانِيِّ النَّجَاشِيِّ يَأْمُرُهُ بِأَخْذِ الثَّأْرِ لِنَصَارَىٰ نَجْرَانَ، فَبَعَثَ مَلِكُ الْحَبَشَةِ جَيْشًا إِلَىٰ الْيَمَنِ، فَصَارُوا إِلَىٰ ذِي نُوَاسٍ وَهَزَمُوهُ، وَأَصْبَحَتِ الْيَمَنُ تَحْتَ قَبْضَةِ الْأَحْبَاشِ النَّصَارَىٰ، فَعَمِلُوا عَلَىٰ نَشْرِ النَّصْرَانِيَّةِ خُصُوصًا بَعْدَ تَوَلِّي أَبْرَهَةَ الْحَبَشِيِّ الَّذِي بَنَىٰ فِي صَنْعَاءَ كَنِيسَةً كَبِيرَةً، وَسَعَىٰ لِصَرْفِ النَّاسِ إِلَىٰ الْحَجِّ إِلَيْهَا، وَتَوَجَّهَ بِجَيْشِهِ لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، كَمَا جَاءَ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فِي سُورَةِ الْفِيلِ.

وَفِي الْأَطْرَافِ الشَّمَالِيَّةِ لِلْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَانَ لِلنَّصْرَانِيَّةِ وُجُودٌ؛ حَيْثُ اعْتَنَقَتْهَا بَعْضُ الْقَبَائِلِ؛ نَتِيجَةَ احْتِكَاكِهَا بِالنَّصَارَىٰ فِي شَمَالِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي تَخْضَعُ لِدَوْلَةِ الرُّومِ النَّصْرَانِيِّ، وَقَدْ شَارَكَ أَعْدَادٌ كَبِيرَةٌ مِنْ هَذِهِ الْقَبَائِلِ الْمُتَنَصِّرَةِ شَارَكُوا مَعَ الرُّومِ فِي حُرُوبِهِمْ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ كَقَبَائِلِ لَخْمٍ، وَجِذَامَ، وَبَلْقِينَ، وَبَهْرَاءَ، وَبَلِيَّ، وَالْغَسَاسِنَةِ، وَغَيْرِهِمْ.

بِجَانِبِ تِلْكَ الدِّيَانَاتِ كَانَتْ تُوجَدُ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ -بِوُجُودٍ ضَئِيلٍ- بَعْضُ الدِّيَانَاتِ؛ كَالصَّابِئَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ مِثْلَ عِبَادَةِ مَلِكَةِ سَبَأٍ وَقَوْمِهَا لِلشَّمْسِ، وَهُنَاكَ الْمَجُوسِيَّةُ فِي الْمَنَاطِقِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْفُرْسِ، كَمَا يُوجَدُ أَفْرَادٌ قَلِيلُونَ مِنَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا فَسَادَ مَا عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنَ الشِّرْكِ، فَتَعَبَّدُوا عَلَىٰ بَقَايَا دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَهُمُ الْحُنَفَاءُ الَّذِينَ مَرَّ ذِكْرُهُمْ.

كَانَتِ الْيَهُودِيَّةُ بِخَيْبَرَ وَمَا جَاوَرَهَا، وَبِيَثْرِبَ، وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ، وَفِي الْحَقِّ أَنَّ الْيَهُودِيَّةَ لَمْ تَجِدْ قَبُولًا وَلَا انْتِشَارًا فِي بِلَادِ الْعَرَبِ؛ لَعَلَّ ذَلِكَ لِأَنَّ الْيَهُودَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ الْمُخْتَارُ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقْبَلِ الْعَرَبِيُّ أَنْ يَدْخُلَ دِينًا يَجْعَلُهُ فِي طَبَقَةٍ دُنْيَا عَنْ طَبَقَةِ دُعَاةِ هَذَا الدِّينِ، وَأَيْضًا فَقَدْ كَانُوا لَا يُهِمُّهُمْ نَشْرُ دِينِهِمْ بِقَدْرِ مَا يُهِمُّهُمْ جَمْعُ الْأَمْوَالِ، هَذَا إِلَىٰ أَنَّ أَخْلَاقَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَتَّصِفُونَ بِهَا مِنَ اللُّؤْمِ، وَالْغَدْرِ، وَالْخِيَانَةِ، وَالْحِرْصِ، وَالشَّرَهِ إِلَىٰ الْمَالِ، وَالَّتِي تُعْتَبَرُ عَلَىٰ الضِّدِّ مِنْ أَخْلَاقِ الْعَرَبِ زَهَّدَتِ الْعَرَبَ فِي دِينِهِمْ، وَالِانْتِظَامِ فِي سِلْكِهِمْ، وَالدُّخُولِ فِي جَمَاعَتِهِمْ.

أَمَّا النَّصْرَانِيَّةُ: فَكَانَتْ مُنْتَشِرَةً بِنَجْرَانَ فِي شَمَالِ الْيَمَنِ، وَطَبِيعِيٌّ أَنَّهَا جَاءَتْ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَفِي شَمَالِ الْجَزِيرَةِ فِي دَوْلَةِ الْغَسَاسِنَةِ، وَقَدْ كَانَتْ وَثِيقَةَ الصِّلَةِ بِالرُّومِ، فَمِنْ ثَمَّ انْتَشَرَتْ فِيهَا النَّصْرَانِيَّةُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا، وَفِي الْحِيرَةِ فَقَدْ تَنَصَّرَ مُعْظَمُ الْأُسْرَةِ الْمَالِكَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ يَاقُوتٌ فِي (مُعْجَمِ الْبُلْدَانِ) أَنَّهُ كَانَ بِالْحِيرَةِ بَيْعَةٌ؛ أَيْ: كَنِيسَةٌ، وَأَنَّهَا مِنْ أَقْدَمِ الْكَنَائِسِ بِبِلَادِ الْعَرَبِ، وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ وَاجِهَتِهَا كِتَابَةٌ نَصُّهَا: (بَنَتْ هَذِهِ الْكَنِيسَةَ هِنْدٌ أَمَةُ الْمَسِيحِ وَأُمُّ عَبْدِهِ).

وَفِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ لَا تَجِدُ أَثَرًا يُذْكَرُ لِلنَّصْرَانِيَّةِ، وَالسَّبَبُ فِي عَدَمِ انْتِشَارِهَا فِي بِلَادِ الْعَرَبِ: التَّعْقِيدَاتُ الَّتِي فِيهَا، لَا سِيَّمَا فِي بَابِ الْأُلُوهِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا يَقْبَلُهَا الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ، وَالْأُمُورُ الَّتِي يَزْعُمُ الْقُسُسُ أَنَّهَا مِنَ الْأَسْرَارِ، وَطَبِيعَةُ الْعَرَبِيِّ تَأْبَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا.

هَذَا مُجْمَلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَالَةِ الدِّينِيَّةِ لِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ عِنْدَمَا بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

www.menhag-un.com

الْحَالَةُ السِّيَاسِيَّةُ لِلْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

وَأَمَّا الْحَالَةُ السِّيَاسِيَّةُ، فَيُمْكِنُ تَقْسِيمُ الْحُكْمِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ شَكْلَيْنِ مِنْ أَشْكَالِ الْحُكْمِ هُمَا:

- الْمَلِكُ الْمُتَوَّجُ.
- وَسِيَادَةُ الْقَبِيلَةِ.

فَالْمَلِكُ الْمُتَوَّجُ: يَتَمَثَّلُ فِي قِيَامِ دُوَيْلَاتٍ فِي عَدَدٍ مِنْ أَطْرَافِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَدَوْلَةِ الْمَنَاذِرَةِ فِي الْحِيرَةِ فِي طَرَفِ الْعِرَاقِ، وَدَوْلَةِ الْغَسَاسِنَةِ فِي بُصْرَىٰ فِي طَرَفِ الشَّامِ، وَدُوَلِ مَعِينٍ، وَسَبَأٍ، وَحِمْيَرَ فِي الْيَمَنِ جَنُوبَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَوْلَةِ كِنْدَةَ فِي وَسَطِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي نَجْدٍ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الدُّوَلَ لَمْ تَكُنْ عَلَىٰ قَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الِاسْتِقْلَالِ؛ حَيْثُ وَقَعَتْ تَحْتَ تَأْثِيرِ النُّفُوذِ الْأَجْنَبِيِّ الْمُتَمَثِّلِ فِي نُفُوذِ دَوْلَتَيِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ اللَّتَيْنِ تَقَاسَمَتَا الزَّعَامَةَ عَلَىٰ الْعَالَمِ آنَذَاكَ.

فَقَدْ قَبِلَ الْفُرْسُ مُنْذُ عَهْدِ أَرْدِشِيرِ الْعَرَبِ بِحُكْمِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ لِلْمَنَاطِقِ الْمُتَاخِمَةِ لِبِلَادِ الْعَرَبِ؛ لِيَتَمَكَّنُوا مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ عَلَىٰ صَدِّ الْغَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَىٰ بِلَادِ الْفُرْسِ، وَلِيَجْعَلُوا مِنْهُمْ عَائِقًا أَمَامَ أَطْمَاعِ مُلُوكِ الرُّومِ الْمُنَافِسِينَ لَهُمْ، وَكَانَ الْمَنَاذِرَةُ آخِرَ مَنْ تَوَلَّىٰ الْحُكْمَ فِي الْحِيرَةِ مِنَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ.

كَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي الشَّامِ صَنَعَ الرُّومُ بَعْضَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِيَتَمَكَّنُوا بِهِمْ مِنْ صَدِّ غَارَاتِ الْعَرَبِ عَلَىٰ حُدُودِ دَوْلَتِهِمْ، وَلِيَتَّخِذُوهُمْ عُدَّةً ضِدَّ مُنَافِسِيهِمُ الْفُرْسِ، وَكَانَ الْغَسَاسِنَةُ آخِرَ مَنْ تَوَلَّىٰ الْحُكْمَ فِي أَطْرَافِ الشَّامِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَاتَّخَذُوا مِنْ بُصْرَىٰ قَاعِدَةً لَهُمْ.

أَمَّا فِي جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ، فَقَدْ تَعَرَّضَتِ الْيَمَنُ فِي أَوَاخِرِ حُكْمِ دَوْلَةِ حِمْيَرَ لِسَيْطَرَةِ النُّفُوذِ الْأَجْنَبِيِّ، فَقَدْ تَمَكَّنَ الْأَحْبَاشُ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا حِينَمَا بَعَثُوا جُيُوشَهُمْ لاحْتِلَالِ الْيَمَنِ؛ رَدًّا عَلَىٰ مَا فَعَلَهُ ذُو نُوَاسٍ بِنَصَارَىٰ نَجْرَانَ كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ.

وَظَلَّتِ الْيَمَنُ تَحْتَ الِاحْتِلَالِ الْحَبَشِيِّ مُنْذُ سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ إِلَىٰ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ حِينَمَا ضَعُفَ أَمْرُ الْأَحْبَاشِ بَعْدَ حَادِثَةِ الْفِيلِ، فَسَنَحَتِ الْفُرْصَةُ لِلْفُرْسِ بِالتَّدَخُّلِ عِنْدَمَا اسْتَنْجَدَ بِهِمْ بَعْضُ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَانْتَهَتْ سَيْطَرَةُ الْفُرْسِ عَلَىٰ الْيَمَنِ بِمَجِيءِ الْإِسْلَامِ حِينَمَا دَخَلَ آخِرُ حُكَّامِهِمْ بَاذَانُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.

فَهَذَا هُوَ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ مِنْ قِسْمَيِ الْحُكْمِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ **(الْمَلِكُ الْمُتَوَّجُ)**.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي، فَسِيَادَةُ الْقَبِيلَةِ: كَانَتْ مُعْظَمُ مَنَاطِقِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ خَاضِعَةً لِلسِّيَادَةِ الْقَبَلِيَّةِ؛ حَيْثُ تُعَدُّ الْقَبِيلَةُ الْوِحْدَةَ السِّيَاسِيَّةَ الَّتِي يَنْتَمِي لَهَا الْفَرْدُ

فَبِأَمْرِهَا يَأْتَمِرُ، وَتَحْكُمُهُ أَعْرَافُهَا، وَمِنْ أَجْلِهَا يُنَاضِلُ، وَعَنْ شَرَفِهَا يُدَافِعُ كَمَا أَنَّ الْقَبِيلَةَ بِأَسْرِهَا مَسْئُولَةٌ عَنِ الدِّفَاعِ عَنْ أَفْرَادِهَا، وَالذَّوْدِ عَنْ حُقُوقِهِمْ، وَعَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ أَنْ يَقِفَ مَعَ أَخِيهِ مِنْ قَبِيلَتِهِ ظَالِمًا كَانَ أَوْ مَظْلُومًا.

حُكَّامُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ عِنْدَ ظُهُورِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ: كَانُوا عَلَىٰ قِسْمَيْنِ: مُلُوكٌ مُتَوَّجُونَ، -إِلَّا أَنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ كَانُوا غَيْرَ مُسْتَقِلِّينَ- وَرُؤَسَاءُ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْحُكْمِ وَالِامْتِيَازِ مَا كَانَ لِلْمُلُوكِ الْمُتَوَّجِينَ، وَمُعْظَمُ هَؤُلَاءِ كَانُوا عَلَىٰ تَمَامِ الِاسْتِقْلَالِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ لِبَعْضِهِمْ تَبَعِيَّةٌ لِمَلِكٍ مُتَوَّجٍ.

الْمُلُوكُ الْمُتَوَّجُونَ: مُلُوكُ الْيَمَنِ، وَمُلُوكُ مَشَارِفِ الشَّامِ، وَهُمْ آلُ غَسَّانَ، وَمُلُوكُ الْحِيرَةِ، وَمَا عَدَا هَؤُلَاءِ مِنْ حُكَّامِ الْجَزِيرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ تِيجَانٌ، وَهَذَا مُوجَزٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ.

* **الْمُلْكُ بِالْيَمَنِ**: مِنْ أَقْدَمِ الشُّعُوبِ الَّتِي عُرِفَتْ بِالْيَمَنِ مِنَ الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ قَوْمُ سَبَأٍ، وَقَدْ عُثِرَ عَلَىٰ ذِكْرِهِمْ فِي حَفْرِيَّاتِ أُورَ بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ قَرْنًا قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَيَبْدَأُ ازْدِهَارُ حَضَارَاتِهِمْ، وَنُفُوذُ سُلْطَانِهِمْ، وَبَسْطُ سَيْطَرَتِهِمْ بِأَحَدَ عَشَرَ قَرْنًا قَبْلَ الْمِيلَادِ، **وَيُمْكِنُ تَقْسِيمُ أَدْوَارِهِمْ حَسَبَ التَّقْدِيرِ الْآتِي**:

مَا بَيْنَ ثَلَاثِمِئَةٍ وَأَلْفٍ إِلَىٰ عِشْرِينَ وَسِتِّمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ: عُرِفَتْ دَوْلَتُهُمْ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ بِالدَّوْلَةِ الْمَعِينِيَّةِ، ظَهَرَتْ فِي الْجَوْفِ بِالسَّهْلِ الْوَاقِعِ بَيْنَ نَجْرَانَ وَحَضْرَمَوْتَ، ثُمَّ أَخَذَتْ تَنْمُو، وَتَتَّسِعُ، وَتُسَيْطِرُ، وَتَزْدَهِرُ حَتَّىٰ بَلَغَ نُفُوذُهَا

السِّيَاسِيُّ إِلَىٰ الْعُلَا وَمَعَانٍ مِنْ شَمَالِيِّ الْحِجَازِ، وَيُقَالُ: إِنَّ مُسْتَعْمَرَاتِهَا وَصَلَتْ إِلَىٰ خَارِجِ بِلَادِ الْعَرَبِ!

وَكَانَتِ التِّجَارَةُ صُلْبَ مَعِيشَتِهِمْ، ثُمَّ إِنَّهُمْ بَنَوْا سَدَّ مَأْرِبَ الَّذِي لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ فِي تَارِيخِ الْيَمَنِ، وَالَّذِي وَفَّرَ لَهُمْ مُعْظَمَ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا.

كَانَ مُلُوكُهُمْ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ يُلَقَّبُونَ بِـ(**مَكْرِبِ سَبَأٍ**)، وَكَانَتْ عَاصِمَتُهُمْ مَدِينَةَ (**صِرْوَاحَ**) الَّتِي تُوجَدُ أَنْقَاضُهَا عَلَىٰ بُعْدِ خَمْسِينَ كِيلُومِتْرًا إِلَىٰ الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ مِنْ مَدِينَةِ مَأْرِبَ، وَعَلَىٰ بُعْدِ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِئَةٍ مِنَ الْكِيلُومِتْرَاتِ شَرْقِيَّ صَنْعَاءَ، وَتُعْرَفُ بِاسْمِ: (**خُرَيْبَةَ**)، وَيُقَدَّرُ عَدَدُ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ مَا بَيْنَ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ، وَسِتَّةٍ وَعِشْرِينَ مَلِكًا.

الْفَتْرَةُ مَا بَيْنَ عِشْرِينَ وَسِتِّمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ إِلَىٰ خَمْسَةَ عَشَرَ وَمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ: عُرِفَتْ دَوْلَتُهُمْ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ بِدَوْلَةِ سَبَأٍ، تَرَكُوا لَقَبَ مَكْرِبٍ، وَعُرِفُوا بِـ(مُلُوكِ سَبَأٍ)، وَاتَّخَذُوا مَأْرِبَ عَاصِمَةً لَهُمْ بَدَلَ صِرْوَاحَ، وَتُوجَدُ أَنْقَاضُ مَأْرِبَ عَلَىٰ بُعْدِ اثْنَيْنِ وَتِسْعِينَ وَمِئَةٍ مِنَ الْكِيلُومِتْرَاتِ شَرْقِيَّ صَنْعَاءَ.

مُنْذُ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ إِلَىٰ سَنَةِ ثَلَاثِ مِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ: عُرِفَتِ الدَّوْلَةُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ بِالدَّوْلَةِ الْحِمْيَرِيَّةِ الْأُولَىٰ؛ لِأَنَّ قَبِيلَةَ حِمْيَرَ غَلَبَتْ وَاسْتَقَلَّتْ بِمَمْلَكَةِ سَبَأٍ، وَقَدْ عُرِفَ مُلُوكُهَا بِمُلُوكِ سَبَأٍ، وَذِي رِيدَانَ، وَهَؤُلَاءِ الْمُلُوكُ اتَّخَذُوا

مَدِينَةَ رِيدَانَ عَاصِمَةً لَهُمْ بَدَلَ مَدِينَةِ مَأْرِبَ، وَتُعْرَفُ بِاسْمِ ظُفَارَ، وَتُوجَدُ أَنْقَاضُهَا عَلَىٰ جَبَلٍ مُدَوَّرٍ بِالْقُرْبِ مِنْ يَرِيمَ، وَفِي ذَلِكَ الْعَهْدِ بَدَأَ فِيهِمُ السُّقُوطُ وَالِانْحِطَاطُ؛ فَقَدْ فَشِلَتْ تِجَارَتُهُمْ إِلَىٰ حَدٍّ كَبِيرٍ لِبَسْطِ الْأَنْبَاطِ سَيْطَرَتَهُمْ عَلَىٰ شَمَالِ الْحِجَازِ أَوَّلًا، ثُمَّ لِغَلَبَةِ الرُّومَانِ عَلَىٰ طَرِيقِ التِّجَارَةِ الْبَحْرِيَّةِ بَعْدَ نُفُوذِ سُلْطَانِهِمْ عَلَىٰ مِصْرَ، وَسُورِيَّا وَشَمَالِيِّ الْحِجَازِ ثَانِيًا، وَلِتَنَافُسِ الْقَبَائِلِ فِيمَا بَيْنَهَا ثَالِثًا، هَذِهِ الْعَنَاصِرُ هِيَ الَّتِي سَبَّبَتْ تَفَرُّقَ آلِ قَحْطَانَ، وَتَسَبَّبَتْ فِي هِجْرَتِهِمْ إِلَىٰ الْبِلَادِ الشَّاسِعَةِ.

مُنْذُ سَنَةِ ثَلَاثِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ إِلَىٰ أَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامُ الْيَمَنَ عُرِفَتِ الدَّوْلَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِالدَّوْلَةِ الْحِمْيَرِيَّةِ الثَّانِيَةِ، وَعُرِفَ مُلُوكُهَا بِمُلُوكِ سَبَأٍ، وَذِي رِيدَانَ، وَحَضْرَمَوْتَ، وَيَامِنْتَ.

وَقَدْ تَوَالَتْ عَلَىٰ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الِاضْطِرَابَاتُ وَالْحَوَادِثُ، وَتَتَابَعَتْ الِانْقِلَابَاتُ وَالْحُرُوبُ الْأَهْلِيَّةُ الَّتِي جَعَلَتْهَا عُرْضَةً لِلْأَجَانِبِ حَتَّىٰ قُضِيَ عَلَىٰ اسْتِقْلَالِهَا؛ فَفِي ذَلِكَ الْعَهْدِ دَخَلَ الرُّومَانُ عَدَنَ، وَبِمَعُونَتِهِمُ احْتَلَّتِ الْأَحْبَاشُ الْيَمَنَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ مُسْتَغِلِّينَ التَّنَافُسَ بَيْنَ قَبِيلَتَيْ هَمْذَانَ، وَحِمْيَرَ، وَاسْتَمَرَّ احْتِلَالُهُمْ إِلَىٰ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ، ثُمَّ نَالَتِ الْيَمَنُ اسْتِقْلَالَهَا، وَلَكِنْ بَدَأَتْ تَقَعُ الثُّلْمَاتُ فِي سَدِّ مَأْرِبَ حَتَّىٰ وَقَعَ السَّيْلُ الْعَظِيمُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ بِـ(**سَيْلِ الْعَرِمِ**) فِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ، أَوْ إِحْدَىٰ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ، وَكَانَتْ حَادِثَةً كُبْرَىٰ أَدَّتْ إِلَىٰ خَرَابِ الْعُمْرَانِ، وَتَشَتُّتِ الشُّعُوبِ.

فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ مِنَ الْمِيلَادِ قَادَ ذُو نُوَاسٍ الْيَهُودِيُّ حَمْلَةً مُنْكَرَةً عَلَىٰ النَّصَارَىٰ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ، وَحَاوَلَ صَرْفَهُمْ عَنِ النَّصْرَانِيَّةِ قَسْرًا، وَلَمَّا أَبَوْا خَدَّ لَهُمُ الْأُخْدُودَ، وَأَلْقَاهُمْ فِي النِّيرَانِ، وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤].

كَانَ هَذَا الْحَادِثُ السَّبَبَ فِي نِقْمَةِ النَّصْرَانِيَّةِ النَّاشِطَةِ إِلَىٰ الْفَتْحِ وَالتَّوَسُّعِ تَحْتَ قِيَادَةِ أَبَاطِرَةِ الرُّومَانِ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ، فَقَدْ حَرَّضُوا الْأَحْبَاشَ، وَهَيَّئُوا لَهُمُ الْأُسْطُولَ الْبَحْرِيَّ، فَنَزَلَ سَبْعُونَ أَلْفَ جُنْدِيٍّ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَاحْتَلُّوا الْيَمَنَ مَرَّةً ثَانِيَةً بِقِيَادَةِ أَرْيَاطَ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ، وَظَلَّ أَرْيَاطُ حَاكِمًا مِنْ قِبَلِ مَلِكِ الْحَبَشَةِ حَتَّىٰ اغْتَالَهُ أَبْرَهَةُ بْنُ الصَّبَّاحِ الْأَشْرَمُ أَحَدُ قُوَّادِ الْحَبَشَةِ، وَقُوَّادِ أَرْيَاطَ سَنَةَ تِسْعٍ، وَأَرْبَعِينَ، وَخَمْسِمِئَةٍ، وَنَصَّبَ نَفْسَهُ حَاكِمًا عَلَىٰ الْيَمَنِ بَعْدَ أَنِ اسْتَرْضَىٰ مَلِكَ الْحَبَشَةِ وَأَرْضَاهُ.

وَأَبْرَهَةُ هَذَا هُوَ الَّذِي جَنَّدَ الْجُنُودَ لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ، وَعُرِفَ هُوَ وَجُنُودُهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، وَقَدْ أَهْلَكَهُ اللهُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ إِلَىٰ صَنْعَاءَ عَقِبَ وَقْعَةِ الْفِيلِ، فَخَلَفَهُ عَلَىٰ الْيَمَنِ ابْنُهُ يَكْسُومُ، ثُمَّ الِابْنُ الثَّانِي مَسْرُوقٌ، وَكَانَا -فِيمَا يُقَالُ- شَرًّا مِنْ أَبِيهِمَا، وَأَخْبَثَ سِيرَةً مِنْهُ فِي اضْطِهَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَقَهْرِهِمْ، وَإِذْلَالِهِمْ.

أَمَّا أَهْلُ الْيَمَنِ فَإِنَّهُمْ بَعْدَ وَقْعَةِ الْفِيلِ اسْتَنْجَدُوا بِالْفُرْسِ، وَقَامُوا بِمُقَاوَمَةِ الْحَبَشَةِ حَتَّىٰ أَجْلَوْهُمْ عَنِ الْبِلَادِ، وَنَالُوا الِاسْتِقْلَالَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ بِقِيَادَةِ مَعْدِي كَرِبَ سَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنَ الْحِمْيَرِيِّ، وَاتَّخَذُوهُ مَلِكًا لَهُمْ.

وَكَانَ مَعْدِيكَرِبُ أَبَقَىٰ مَعَهُ جَمْعًا مِنَ الْحَبَشَةِ يَخْدُمُونَهُ، وَيَمْشُونَ فِي رِكَابِهِ، فَاغْتَالُوهُ ذَاتَ يَوْمٍ، وَبِمَوْتِهِ انْقَطَعَ الْمُلْكُ عَنْ بَيْتِ ذِي يَزَنَ، وَصَارَتِ الْيَمَنُ مُسْتَعْمَرَةً فَارِسِيَّةً تَتَعَاقَبُ عَلَيْهَا وُلَاةٌ مِنَ الْفُرْسِ، كَانَ أَوَّلُهُمْ: وَهْرِزَ، ثُمَّ الْمَرْزُبَانُ بْنُ وهْرِزَ، ثُمَّ ابْنُهُ التَّيْنِجَانُ، ثُمَّ خِسْرُو وَلَدُهُ ثُمَّ بَاذَنُ، وَكَانَ آخِرَ وُلَاةِ الْفُرْسِ؛ لِأَنَّهُ اعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِئَةٍ، وَبِإِسْلَامِهِ انْتَهَىٰ نُفُوذُ فَارِسَ عَلَىٰ بِلَادِ الْيَمَنِ.

فِي تَارِيخِ تَعْيِينِ السِّنِينَ وَتَفْصِيلِ الْحَوَادِثِ اخْتِلَافٌ كَبِيرٌ بَيْنَ الْمَصَادِرِ التَّارِيخِيَّةِ حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الْكُتَّابِ عَنْ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ: إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

* **أَمَّا الْمُلْكُ بِالْحِيرَةِ:** فَقَدْ كَانَتِ الْفُرْسُ تَحْكُمُ بِلَادَ الْعِرَاقِ، وَمَا جَاوَرَهَا مُنْذُ أَنْ جَمَعَ شَمْلَهُمْ أُورَشُ الْكَبِيرُ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُنَاوِئُهُمْ حَتَّىٰ قَامَ الْإِسْكَنْدَرُ الْمَقْدُونِيُّ سَنَةَ سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمِئَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ فَهَزَمَ مَلِكَهُمْ دَارَا، وَبَدَّدَهُمْ، وَخَضَدَ شَوْكَتَهُمْ حَتَّىٰ تَجَزَّأَتْ بِلَادُهُمْ، وَتَوَلَّاهَا مُلُوكٌ عُرِفُوا بِمُلُوكِ الطَّوَائِفِ.

وَقَدْ ظَلَّ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكُ يَحْكُمُونَ الْبِلَادَ مُجَزَّأَةً إِلَىٰ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَمِئَتَيْنِ مِنَ الْمِيلَادِ، وَفِي عَهْدِ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ هَاجَرَ الْقَحْطَانِيُّونَ، وَاحْتَلُّوا جُزْءًا مِنْ رِيفِ الْعِرَاقِ، ثُمَّ لَحِقَهُمْ مَنْ هَاجَرَ مِنَ الْعَدْنَانِيِّينَ، فَزَاحَمُوهُمْ حَتَّىٰ سَكَنُوا جُزْءًا مِنَ الْجَزِيرَةِ الْفُرَاتِيَّةِ.

وَأَوَّلُ مَنْ مَلَكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ: هُوَ مَالِكُ بْنُ فَهْمٍ التَّنُوخِيُّ مِنْ

www.menhaa-un.com

آلِ قَحْطَانَ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ الْأَنْبَارَ أَوْ مِمَّا يَلِي الْأَنْبَارَ، وَخَلَفَهُ أَخُوهُ عَمْرُو بْنُ فَهْمٍ -فِي رِوَايَةٍ- وَجَذِيمَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ فَهْمٍ، وَهُوَ الْمُلَقَّبُ بِالْأَبْرَشِ وَالْوَضَّاحِ -فِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ-.

عَادَتِ الْقُوَّةُ مَرَّةً ثَانِيَةً إِلَىٰ الْفُرْسِ فِي عَهْدِ أَرْدِشِيرَ بْنِ بَابِكَ، مُؤَسِّسِ الدَّوْلَةِ السَّاسَانِيَّةِ سَنَةَ سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَمِئَتَيْنِ مِنَ الْمِيلَادِ، جَمَعَ شَمْلَ الْفُرْسِ، وَاسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ الْعَرَبِ الْمُقِيمِينَ عَلَىٰ تُخُومِ مُلْكِهِ، وَكَانَ هَذَا سَبَبًا فِي رَحِيلِ قُضَاعَةَ إِلَىٰ الشَّامِ، وَلَكِنْ دَانَ لَهُ أَهْلُ الْحِيرَةِ وَالْأَنْبَارِ.

فِي عَهْدِ أَرْدِشِيرَ كَانَتْ وَلَايَةُ جَذِيمَةَ الْوَضَّاحِ عَلَىٰ الْحِيرَةِ، وَسَائِرِ مَنْ بِبَادِيَةِ الْعِرَاقِ وَالْجَزِيرَةِ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ، وَكَأَنَّ أَرْدِشِيرَ رَأَىٰ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ الْعَرَبَ مُبَاشَرَةً، وَيَمْنَعَهُمْ مِنَ الْإِغَارَةِ عَلَىٰ تُخُومِ مُلْكِهِ إِلَّا أَنْ يُمَلِّكَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ لَهُ عَصَبِيَّةٌ تُؤَيِّدُهُ وَتَمْنَعُهُ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ يُمْكِنُهُ الِاسْتِعَانَةُ بِهِمْ عَلَىٰ مُلُوكِ الرُّومَانِ الَّذِينَ كَانَ يَتَخَوَّفُهُمْ؛ وَلِيَكُونَ عَرَبُ الْعِرَاقِ أَمَامَ عَرَبِ الشَّامِ الَّذِينَ اصْطَنَعَهُمْ مُلُوكُ الرُّومَانِ؛ فَالْأَمْرُ قَدِيمٌ، قَدِيمٌ جِدًّا، بِجَعْلِ هَؤُلَاءِ ضِدَّ هَؤُلَاءِ، اسْتِعْمَالِ هَؤُلَاءِ لِمُحَارَبَةِ هَؤُلَاءِ، وَتَفْرِيقِهِمْ وَالْوَقِيعَةِ بَيْنَهُمْ، وَتَقْرِيبِ هَؤُلَاءِ، وَتَبْعِيدِ هَؤُلَاءِ، هَذَا أَمْرٌ قَدِيمٌ، وَلَكِنْ مَنْ يَتَعَلَّمُ!

السَّعِيدُ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ!

لِيَكُونَ عَرَبُ الْعِرَاقِ أَمَامَ عَرَبِ الشَّامِ الَّذِينَ اصْطَنَعَهُمْ مُلُوكُ الرُّومَانِ،

www.menhaj-um.com

وَكَانَ يَبْقَىٰ عِنْدَ مَلِكِ الْحِيرَةِ كَتِيبَةٌ مِنْ جُنُودِ الْفُرْسِ؛ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَىٰ الْخَارِجِينَ عَنْ سُلْطَانِهِ مِنْ عَرَبِ الْبَادِيَةِ، وَكَانَ مَوْتُ جَذِيمَةَ حَوَالَيْ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَمِئَتَيْنِ.

بَعْدَ مَوْتِ جَذِيمَةَ وَلِيَ الْحِيرَةَ وَالْأَنْبَارَ عَمْرُو بْنُ عَدِيِّ بْنِ نَصْرٍ اللَّخْمِيُّ أَوَّلُ مُلُوكِ اللَّخْمِيِّينَ، وَأَوَّلَ مَنِ اتَّخَذَ الْحِيرَةَ مَقَرًّا لَهُ، وَكَانَ فِي عَهْدِ كِسْرَىٰ سَابُورِ بْنِ أَرْدِشِيرَ. ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْمُلُوكُ مِنَ اللَّخْمِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ يَتَوَلَّوْنَ الْحِيرَةَ حَتَّىٰ وَلِّي الْفُرْسُ قُبَاذُ بْنُ فَيْرُوزٍ، وَفِي عَهْدِهِ ظَهَرَ مَزْدَكُ، وَقَامَ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْإِبَاحِيَّةِ فَتَبِعَهُ قُبَاذُ كَمَا تَبِعَهُ كَثِيرٌ مِنْ رَعِيَّتِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَ قِبَابٌ إِلَىٰ مَلِكِ الْحِيرَةِ، وَهُوَ الْمُنْذِرُ بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ يَدْعُوهُ إِلَىٰ اخْتِيَارِ هَذَا الْمَذْهَبِ الْخَبِيثِ، فَأَبَىٰ عَلَيْهِ حَمِيَّةً، وَأَنَفَةً فَعَزَلَهُ قُبَاذُ، وَوَلَّىٰ بَدَلَهُ الْحَارِثَ بْنَ عَمْرِو بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيَّ بَعْدَ أَنْ أَجَابَ دَعْوَتَهُ إِلَىٰ الْمَذْهَبِ الْمَزْدَكِيِّ.

الْمَذْهَبُ الْمَزْدَكِيُّ: مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الْإِبَاحِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ فِي النِّسَاءِ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مُحَرَّمَاتٌ بِإِطْلَاقٍ، وَإِنَّمَا هِيَ الْإِبَاحِيَّةُ بِإِطْلَاقٍ، فَحَتَّىٰ الْعَرَبُ مِنْهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ -مِنْهُمْ- مَنْ أَنِفَ أَنْ يَتَّبِعَ هَذَا الْمَذْهَبَ، وَرَدَّهُ حَمِيَّةً حَتَّىٰ وَلَوْ عُزِلَ عَنْ مُلْكِهِ.

خَلَفَ قُبَاذَ كِسْرَىٰ أَنُوشِرْوَانَ، وَكَانَ يَكْرَهُ الْمَزْدَكِيَّةَ جِدًّا فَقَتَلَ الْمَزْدَكَ، وَكَثِيرًا مِمَّنْ دَانَ بِمَذْهَبِهِ، وَأَعَادَ الْمُنْذِرَ إِلَىٰ وَلَايَةِ الْحِيرَةِ، وَطَلَبَ الْحَارِثَ بْنَ

عَمْرٍو لَكِنَّهُ أَفْلَتَ إِلَىٰ دَارِ كَلْبٍ، فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ حَتَّىٰ مَاتَ.

اسْتَمَرَّ الْمُلْكُ بَعْدَ مَاءِ السَّمَاءِ فِي عَقِبِهِ، حَتَّىٰ كَانَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ؛ فَإِنَّهُ غَضِبَ عَلَيْهِ كِسْرَىٰ بِسَبَبِ وِشَايَةٍ دَبَّرَهَا زَيْدُ بْنُ عَدِيٍّ الْعِبَادِيُّ، فَأَرْسَلَ كِسْرَىٰ إِلَىٰ النُّعْمَانِ يَطْلُبُهُ، فَخَرَجَ نُعْمَانُ حَتَّىٰ نَزَلَ سِرًّا عَلَىٰ هَانِئِ بْنِ مَسْعُودٍ سَيِّدِ آلِ شَيْبَانَ، وَأَوْدَعَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَىٰ كِسْرَىٰ، فَحَبَسَهُ كِسْرَىٰ حَتَّىٰ مَاتَ، وَوَلَّىٰ عَلَىٰ الْحِيرَةِ بَدَلَهُ إِيَاسَ بْنَ قَبِيصَةَ الطَّائِيَّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَىٰ هَانِئِ بْنِ مَسْعُودٍ يَطْلُبُ مِنْهُ تَسْلِيمَ مَا عِنْدَهُ، فَأَبَىٰ ذَلِكَ هَانِئٌ حَمِيَّةً، وَآذَنَ الْمَلِكَ بِالْحَرْبِ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَتْهُ مَرَازِبَةُ كِسْرَىٰ وَكَتَائِبُهُ فِي مَوْكِبِ إِيَاسٍ، وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَعْرَكَةٌ هَائِلَةٌ عِنْدَ ذِي قَارٍ، انْتَصَرَ فِيهَا بَنُو شَيْبَانَ، وَانْهَزَمَتِ الْفُرْسُ هَزِيمَةً نَكْرَاءَ.

وَهَذَا أَوَّلُ يَوْمٍ انْتَصَرَ فِيهِ الْعَرَبُ عَلَىٰ الْعَجَمِ هُوَ يَوْمُ ذِي قَارٍ، وَهُوَ بَعْدَ مِيلَادِ الرَّسُولِ ﷺ، وَاخْتَلَفَ الْمُؤَرِّخُونَ فِي تَحْدِيدِ زَمَنِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ:

فَقِيلَ: هُوَ بَعْدَ مِيلَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِقَلِيلٍ، وَأَنَّهُ ﷺ وُلِدَ لِثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ مِنْ وَلَايَةِ إِيَاسِ بْنِ قَبِيصَةَ عَلَىٰ الْحِيرَةِ.

وَقِيلَ: قَبْلَ النُّبُوَّةِ بِقَلِيلٍ وَهُوَ الْأَقْرَبُ.

وَقِيلَ: بَعْدَ النُّبُوَّةِ بِقَلِيلٍ.

وَقِيلَ: بَعْدَ الْهِجْرَةِ.

وَقِيلَ: بَعْدَ بَدْرٍ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

www.menhaj-un.com

وَوَلَّىٰ كِسْرَىٰ عَلَىٰ الْحِيرَةِ بَعْدَ إِيَاسٍ حَاكِمًا فَارِسِيًّا ظَلَّ يَحْكُمُ سَبْعَةَ عَشَرَ عَامًا، ثُمَّ عَادَ الْمُلْكُ إِلَىٰ آلِ لَخْمٍ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِئَةٍ، وَتَوَلَّىٰ مِنْهُمُ الْمُنْذِرُ بْنُ النُّعْمَانِ الْمُلَقَّبُ بِالْمَعْرُورِ، وَلَكِنْ لَمْ تَزِدْ وَلَايَتُهُ عَلَىٰ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ حَتَّىٰ قَدِمَ عَلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِعَسَاكِرِ الْمُسْلِمِينَ.

* **وَأَمَّا الْمُلْكُ بِالشَّامِ**: فَفِي الْعَهْدِ الَّذِي مَاجَتْ فِيهِ الْعَرَبُ بِهِجْرَاتِ الْقَبَائِلِ سَارَتْ بُطُونٌ مِنْ قُضَاعَةَ إِلَىٰ مَشَارِفِ الشَّامِ، وَسَكَنَتْ بِهَا، وَكَانُوا مِنْ بَنِي سُلَيْحِ بْنِ حُلْوَانَ الَّذِينَ مِنْهُمُ الضَّجَاعِمَةُ، اصْطَنَعَهُمُ الرُّومَانُ لِيَمْنَعُوا عَرَبَ الْبَرِّيَّةِ مِنَ الْعَبَثِ، وَلِيكُونُوا عُدَّةً ضِدَّ الْفُرْسِ، وَوَلَّوْا مِنْهُمْ مَلِكًا، ثُمَّ تَعَاقَبَ الْمُلْكُ فِيهِمْ سِنِينَ.

وَمِنْ أَشْهَرِ مُلُوكِهِمْ: زِيَادُ بْنُ الْهَبُولَةِ، وَيُقَدَّرُ زَمَانُهُمْ مِنْ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّانِي الْمِيلَادِيِّ إِلَىٰ نِهَايَتِهِ تَقْرِيبًا، انْتَهَتْ وَلَايَتُهُمْ بَعْدَ قُدُومِ آلِ غَسَّانَ الَّذِينَ غَلَبُوا الضَّجَاعِمَةَ عَلَىٰ مَا بِيَدِهِمْ، وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ، فَوَلَّتْهُمُ الرُّومُ مُلُوكًا عَلَىٰ عَرَبِ الشَّامِ، وَكَانَتْ قَاعِدَتُهُمْ مَدِينَةَ بُصْرَىٰ.

وَلَمْ تَزَلْ تَتَوَالَىٰ الْغَسَاسِنَةُ عَلَىٰ الشَّامِ بِصِفَتِهِمْ عُمَّالًا لِمُلُوكِ الرُّومِ حَتَّىٰ كَانَتْ وَقْعَةُ (الْيَرْمُوكِ) فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَانْقَادَ لِلْإِسْلَامِ آخِرُ مُلُوكِهِمْ جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْهَمِ فِي عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

www.menhag-un.com

الْحُكْمُ وَالْإِمَارَةُ فِي الْعَرَبِ

وَأَمَّا الْإِمَارَةُ بِالْحِجَازِ: فَقَدْ وَلِيَ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام زَعَامَةَ مَكَّةَ، وَوَلَايَةَ الْبَيْتِ طُولَ حَيَاتِهِ، وَتُوُفِّيَ وَلَهُ سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ وَمِئَةٌ مِنَ السِّنِينَ.

ثُمَّ وَلِيَ وَاحِدٌ -وَقِيلَ: اثْنَانِ- مِنْ أَبْنَائِهِ نَابِتٌ ثُمَّ قَيْدَارُ، وَيُقَالُ الْعَكْسُ، ثُمَّ أَمَرَ مَكَّةَ بَعْدَهُمَا جَدُّهُمَا مُضَاضُ بْنُ عَمْرٍو الْجُرْهُمِيُّ، فَانْتَقَلَتْ زَعَامَةُ مَكَّةَ إِلَىٰ جُرْهُمٍ، وَظَلَّتْ فِي أَيْدِيهِمْ.

وَكَانَ لِأَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ مَرْكَزٌ مُحْتَرَمٌ؛ لِمَا لِأَبِيهِمْ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْحُكْمِ شَيْءٌ، مَضَتِ الدُّهُورُ وَالْأَيَّامُ، وَلَمْ يَزَلْ أَمْرُ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام ضَئِيلًا لَا يُذْكَرُ حَتَّىٰ ضَعُفَ أَمْرُ جُرْهُمٍ قُبَيْلَ ظُهُورِ بُخْتُنُصَّرَ، وَأَخَذَ نَجْمُ عَدْنَانَ السِّيَاسِيُّ يَتَأَلَّقُ فِي أُفُقِ سَمَاءِ مَكَّةَ مُنْذُ ذَلِكَ الْعَصْرِ؛ بِدَلِيلِ مَا جَاءَ بِمُنَاسَبَةِ غَزْوِ بُخْتُنُصَّرَ لِلْعَرَبِ فِي ذَاتِ عِرْقٍ، فَإِنَّ قَائِدَ الْعَرَبِ فِي الْمَوْقِعَةِ لَمْ يَكُنْ جُرْهُمِيًّا، بَلْ كَانَ عَدْنَانَ نَفْسَهُ.

تَفَرَّقَتْ بَنُو عَدْنَانَ إِلَىٰ الْيَمَنِ عِنْدَ غَزْوَةِ بُخْتُنُصَّرَ الثَّانِيَةِ، وَذَهَبَ بَرْخِيَا صَاحِبُ يَرْمِيَاهُ النَّبِيِّ الْإِسْرَائِيلِيِّ بِمَعَدٍّ إِلَىٰ حَرَّانَ مِنَ الشَّامِ، فَلَمَّا انْكَشَفَ ضَغْطُ بُخْتُنُصَّرَ رَجَعَ مَعَدٌّ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْ جُرْهُمٍ إِلَّا جَوْهَمَ بْنَ جُلْهُمَةَ، فَتَزَوَّجَ

بِبِنْتِهِ مُعَانَةَ، فَوَلَدَتْ لَهُ نِزَارًا، نِزَارُ بْنُ عَدْنَانَ.

صَارَ أُمَرَاءُ جُرْهُمٍ بِمَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ حَالَةٍ مِنَ السُّوءِ وَضِيقِ الْحَالِ، وَظَلَمُوا الْوَافِدِينَ إِلَيْهَا، وَاسْتَحَلُّوا مَالَ الْكَعْبَةِ وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي كَانَ يَغِيظُ الْعَدْنَانِيِّينَ، وَيُثِيرُ حَفَائِظَهُمْ.

وَلَمَّا نَزَلَتْ خُزَاعَةُ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، وَرَأَتْ نُفُورَ الْعَدْنَانِيِّينَ مِنَ الْجَرَاهِمَةِ اسْتَغَلَّتْ ذَلِكَ فَقَامَتْ بِمَعُونَةٍ مِنْ بُطُونِ عَدْنَانَ، وَهُمْ بَنُو بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ كِنَانَةَ بِمُحَارَبَةِ جُرْهُمٍ حَتَّىٰ أَجْلَتْهُمْ عَنْ مَكَّةَ، وَاسْتَوْلَتْ خُزَاعَةُ عَلَىٰ حُكْمِهَا فِي أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الثَّانِي لِلْمِيلَادِ.

لَمَّا لَجَأَتْ جُرْهُمٌ إِلَىٰ الْجَلَاءِ سَدُّوا بِئْرَ زَمْزَمَ، وَدَرَسُوا مَوْضِعَهَا، وَدَفَنُوا فِيهَا عِدَّةَ أَشْيَاءَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ أَعَادَ حَفْرَ زَمْزَمَ؛ فَما كَانَ سَبَبُ رَدْمِهَا؟ وَكَيْفَ غُيِّبَ مَوْضِعُهَا عَلَيْهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَهَا، وَكَانُوا الْقَائِمِينَ عَلَىٰ شَأْنِهَا؟

لَمَّا لَجَأَتْ جُرْهُمٌ إِلَىٰ الْجَلَاءِ سَدُّوا بِئْرَ زَمْزَمَ، وَدَرَسُوا مَوْضِعَهَا، وَدَفَنُوا فِيهَا عِدَّةَ أَشْيَاءَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ بْنِ مُضَاضٍ الْجُرْهُمِيُّ بِغَزَالَيِ الْكَعْبَةِ، وَبِحَجَرِ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ، فَدَفَنَهُمَا فِي بِئْرِ زَمْزَمَ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ جُرْهُمٍ إِلَىٰ الْيَمَنِ، فَحَزِنُوا عَلَىٰ مَا فَارَقُوا مِنْ أَمْرِ مَكَّةَ وَمُلْكِهَا حُزْنًا شَدِيدًا، وَفِي

ذَلِكَ قَالَ عَمْرٌو:

كَـــأَنْ لَـــمْ يَكُـــنْ بَـــيْنَ الْحَجُـــونِ إِلَـــىٰ الصَّـــفَا
أَنِـــيسٌ وَلَـــمْ يَسْـــمُرْ بِمَكَّـــةَ سَـــامِرُ
بَلَـــىٰ نَحْـــنُ كُنَّـــا أَهْلَهَـــا فَأَبَادَنَـــا
صُـــرُوفُ اللَّيَـــالِي وَالْجُـــدُودُ الْعَـــوَاثِرُ

وَيُقَدَّرُ زَمَنُ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام بِعِشْرِينَ قَرْنًا قَبْلَ الْمِيلَادِ، فَتَكُونُ إِقَامَةُ جُرْهُمٍ فِي مَكَّةَ وَاحِدًا وَعِشْرِينَ قَرْنًا تَقْرِيبًا، وَحُكْمُهُمْ عَلَىٰ مَكَّةَ زُهَاءَ عِشْرِينَ قَرْنًا.

اسْتَبَدَّتْ خُزَاعَةُ بِأَمْرِ مَكَّةَ دُونَ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ إِلَىٰ قَبَائِلِ مُضَرَ ثَلَاثُ خِلَالٍ:

الْأُولَىٰ: الدَّفْعُ بِالنَّاسِ مِنْ عَرَفَةَ إِلَىٰ الْمُزْدَلِفَةِ، وَالْإِجَازَةُ بِهِمْ يَوْمَ النَّفْرِ مِنْ مِنًىٰ، وَكَانَ يَلِي ذَلِكَ بَنُو الْغَوْثِ بْنِ مُرَّةَ مِنْ بُطُونِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ صُوفَةَ.

وَمَعْنَىٰ هَذِهِ الْإِجَازَةِ: أَنَّ النَّاسَ كَانَ لَا يَرْمُونَ يَوْمَ النَّفْرِ حَتَّىٰ يَرْمِيَ رَجُلٌ مِنْ صُوفَةَ، ثُمَّ إِذَا فَرَغَ النَّاسُ مِنَ الرَّمْيِ وَأَرَادُوا النَّفْرَ مِنْ مِنًىٰ، أَخَذَتْ صُوفَةُ بِجَانِبَيِ الْعَقَبَةِ، فَلَمْ يَجُزْ أَحَدٌ حَتَّىٰ يَمُرُّوا هُمْ، ثُمَّ يُخَلُّونَ سَبِيلَ النَّاسِ، فَلَمَّا انْقَرَضَتْ صُوفَةُ، وَرِثَهُمْ بَنُو سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةٍ مِنْ تَمِيمٍ.

الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ: الْإِفَاضَةُ مِنْ جَمْعٍ غَدَاةَ النَّحْرِ إِلَىٰ مِنًى، وَكَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي عُدْوَانَ.

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَإِنْسَاءُ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، وَكَانَ ذَلِكَ إِلَىٰ بَنِي فُقَيْمِ بْنِ عَدِيٍّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ.

اسْتَمَرَّتْ وَلَايَةُ خُزَاعَةَ عَلَىٰ مَكَّةَ ثَلَاثَمِئَةِ سَنَةٍ، وَفِي وَقْتِ حُكْمِهِمُ انْتَشَرَ الْعَدْنَانِيُّونَ فِي نَجْدٍ، وَأَطْرَافِ الْعِرَاقِ، وَالْبَحْرَيْنِ، وَبَقِيَ بِأَطْرُقِ مَكَّةَ بُطُونٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُمْ حُلُولٌ، وَصِرْمٌ مُتَقَطِّعُونَ، وَبُيُوتَاتٌ مُتَفَرِّقُونَ مِنْ قَوْمِهِمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ مَكَّةَ وَلَا الْبَيْتِ الْحَرَامِ شَيْءٌ حَتَّىٰ جَاءَ قُرَيْشُ بْنُ كِلَابٍ.

يُذْكَرُ مِنْ أَمْرِ قُصَيٍّ: أَنَّ أَبَاهُ مَاتَ، وَهُوَ فِي حِجْرِ أُمِّهِ، وَنَكَحَ أُمَّهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ هُوَ رَبِيعَةُ بْنُ حَرَامٍ، فَاحْتَمَلَهَا إِلَىٰ بِلَادِهِ بِأَطْرَافِ الشَّامِ، فَلَمَّا شَبَّ قُصَيٌّ رَجَعَ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَكَانَ وَالِيَهَا إِذَّاكَ حُلَيْلُ بْنُ الْحَبَشِيَّةِ مِنْ خُزَاعَةَ، فَخَطَبَ قُصَيٌّ إِلَىٰ حُلَيْلٍ ابْنَتَهُ حُبَّىٰ، فَرَغِبَ فِيهِ حُلَيْلٌ، وَزَوَّجَهُ إِيَّاهَا، لَمَّا مَاتَ حُلَيْلٌ قَامَتْ حَرْبٌ بَيْنَ خُزَاعَةَ وَقُرَيْشٍ أَدَّتْ أَخِيرًا إِلَىٰ تَغَلُّبِ قُصَيٍّ عَلَىٰ أَمْرِ مَكَّةَ، وَالْبَيْتِ.

هُنَاكَ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ فِي بَيَانِ سَبَبِ هَذِهِ الْحَرْبِ:

الْأُولَىٰ: أَنَّ قُصَيًّا لَمَّا انْتَشَرَ وَلَدُهُ، وَكَثُرَ مَالُهُ، وَعَظُمَ شَرَفُهُ، وَهَلَكَ حُلَيْلٌ

رَأَىٰ أَنَّهُ أَوْلَىٰ بِمَكَّةَ، وَبِأَمْرِ الْكَعْبَةِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَبَنِي بَكْرٍ، وَأَنَّ قُرَيْشًا هُمْ رُءُوسُ آلِ إِسْمَاعِيلَ، وَصَرِيحُهُمْ، فَكَلَّمَ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ، وَبَنِي كِنَانَةَ فِي إِخْرَاجِ خُزَاعَةَ، وَبَنِي بَكْرٍ عَنْ مَكَّةَ فَأَجَابُوهُ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ حُلَيْلًا -فِيمَا تَزْعُمُ خُزَاعَةُ- أَوْصَىٰ قُصَيًّا بِالْقِيَامِ عَلَىٰ الْكَعْبَةِ، وَبِأَمْرِ مَكَّةَ، لَكِنْ أَبَتْ خُزَاعَةُ أَنْ تُمْضِيَ ذَلِكَ لِقُصَيٍّ، فَهَاجَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا.

الرِّوَايَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ حُلَيْلًا أَعْطَىٰ ابْنَتَهُ حُبَّىٰ وَلَايَةَ الْبَيْتِ، وَاتَّخَذَ أَبَا غُبْشَانَ الْخُزَاعِيَّ وَكِيلًا لَهَا، فَقَامَ أَبُو غُبْشَانَ بِسِدَانَةِ الْكَعْبَةِ نِيَابَةً عَنْ حُبَّىٰ، وَكَانَ فِي عَقْلِهِ شَيْءٌ، فَلَمَّا مَاتَ حُلَيْلٌ خَدَعَهُ قُصَيٌّ، وَاشْتَرَىٰ مِنْهُ وَلَايَةَ الْبَيْتِ بِأَذْوادٍ مِنَ الْإِبِلِ أَوْ بِزِقٍّ مِنَ الْخَمْرِ، وَلَمْ تَرْضَ خُزَاعَةُ بِهَذَا الْبَيْعِ، وَحَاوَلُوا مَنْعَ قُصَيٍّ عَنِ الْبَيْتِ، فَجَمَعَ قُصَيٌّ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ وَبَنِي كِنَانَةَ؛ لِإِخْرَاجِ خُزَاعَةَ مِنْ مَكَّةَ فَأَجَابُوهُ.

وَأَيًّا مَا كَانَ فَلَمَّا مَاتَ حُلَيْلٌ، وَفَعَلَتْ صُوفَةُ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ أَتَاهُمْ قُصَيٌّ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكِنَانَةَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ فَقَالَ: نَحْنُ أَوْلَىٰ بِهَذَا مِنْكُمْ.

فَقَاتَلُوهُ، فَغَلَبَهُمْ قُصَيٌّ عَلَىٰ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ، وَانْحَازَتْ عِنْدَ ذَلِكَ خُزَاعَةُ، وَبَنُو بَكْرٍ عَنْ قُصَيٍّ فَبَادَأَهُمْ قُصَيٌّ، وَأَجْمَعَ لِحَرْبِهِمْ فَالْتَقَوْا، وَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّىٰ كَثُرَتِ الْقَتْلَىٰ فِي الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا.

ثُمَّ تَدَاعَوْا إِلَىٰ الصُّلْحِ، فَحَكَّمُوا يَعْمُرَ بْنَ عَوْفٍ أَحَدَ بَنِي بَكْرٍ، فَقَضَىٰ:

بِأَنَّ قُصَيًّا أَوْلَىٰ بِالْكَعْبَةِ، وَبِأَمْرِ مَكَّةَ مِنْ خُزَاعَةَ.

وَأَنَّ كُلَّ دَمٍ أَصَابَهُ قُصَيٌّ مِنْهُمْ فَمَوْضُوعٌ يَشْدَخُهُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ.

وَمَا أَصَابَتْ خُزَاعَةُ، وَبَنُو بَكْرٍ فَفِيهِ الدِّيَةُ.

وَأَنْ يُخَلَّىٰ بَيْنَ قُصَيٍّ، وَبَيْنَ الْكَعْبَةِ.

فَسُمِّيَ يَعْمُرُ يَوْمَئِذٍ: بِالشَّدَّاخِ.

كَانَتْ فَتْرَةُ تَوَلِّي خُزَاعَةَ لِأَمْرِ الْبَيْتِ ثَلَاثَمِئَةِ سَنَةٍ، وَاسْتَوْلَىٰ قُصَيٌّ عَلَىٰ أَمْرِ مَكَّةَ وَالْبَيْتِ فِي أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ لِلْمِيلَادِ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ، بِذَلِكَ صَارَتْ لِقُصَيٍّ ثُمَّ لِقُرَيْشٍ السِّيَادَةُ التَّامَّةُ، وَالْأَمْرُ النَّافِذُ فِي مَكَّةَ، وَصَارَ قُصَيٌّ الرَّئِيسَ الدِّينِي لِهَذَا الْبَيْتِ الَّذِي كَانَتْ تَفِدُ إِلَيْهِ الْعَرَبُ مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ.

وَمِمَّا فَعَلَهُ قُصَيٌّ بِمَكَّةَ: أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَقَطَّعَهَا رِبَاعًا بَيْنَ قَوْمِهِ، وَأَنْزَلَ كُلَّ قَوْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي أَصْبَحُوا عَلَيْهَا، وَأَقَرَّ النَّسَأَةَ، وَآلَ صَفْوَانَ، وَعَدْوَانَ، وَمُرَّةَ بْنَ عَوْفٍ عَلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَنَاصِبِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَرَاهُ دِينًا فِي نَفْسِهِ لَا يَنْبَغِي تَغْيِيرُهُ.

وَمِنْ مَآثِرِ قُصَيٍّ: أَنَّهُ أَسَّسَ دَارَ النَّدْوَةِ بِالْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ، وَجَعَلَ بَابَهَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَكَانَتْ مَجْمَعَ قُرَيْشٍ، وَفِيهَا تُفْصَلُ مَهَامُّ أُمُورِهِمْ.

وَلِهَذِهِ الدَّارِ فَضْلٌ عَلَىٰ قُرَيْشٍ؛ لِأَنَّهَا ضَمِنَتْ اجْتِمَاعَ الكَلِمَةِ، وَفَضِّ المَشَاكِلِ بِالْحُسْنَىٰ.

وَكَانَ لِقُصَيٍّ مِنْ مَظَاهِرِ الرِّيَاسَةِ، وَالتَّشْرِيفِ:

رِيَاسَةُ دَارِ النَّدْوَةِ: فَفِيهَا كَانُوا يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ جِسَامِ الْأُمُورِ،

وَفِيهَا كَانُوا يُزَوِّجُونَ بَنَاتِهِمْ.

وَكَانَ لَهُ -أَيْضًا- اللِّوَاءُ؛ فَكَانَتْ لَا تُعْقَدُ رَايَةٌ، وَلَا لِوَاءٌ لِحَرْبٍ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَّا بِيَدِهِ أَوْ بِيَدِ أَحَدِ أَوْلَادِهِ.

وَفِي هَذِهِ الدَّارِ -أَيْ: فِي دَارِ النَّدْوَةِ- وَكَانَ لَهُ الْقِيَادَةُ -وَهِيَ: إِمَارَةُ الرَّكْبِ-، فَكَانَتْ لَا تُخْرِجُ رَكْبًا لِأَهْلِ مَكَّةَ فِي تِجَارَةٍ أَوْ غَيْرِهَا إِلَّا تَحْتَ إِمَارَتِهِ أَوْ إِمَارَةِ أَوْلَادِهِ.

وَكَانَ لَهُ الْحِجَابَةُ: وَهِيَ حِجَابَةُ الْكَعْبَةِ، لَا يَفْتَحُ بَابَهَا إِلَّا هُوَ، وَهُوَ الَّذِي يَلِي أَمَرَ خِدْمَتِهَا، وَسِدَانَتِهَا.

وَكَانَ لَهُ -أَيْضًا- سِقَايَةُ الْحَاجِّ: وَهِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَمْلَئُونَ لِلْحُجَّاجِ حِيَاضًا مِنَ الْمَاءِ يُحَلُّونَهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّمْرِ وَالزَّبِيبِ فَيَشْرَبُ النَّاسُ مِنْهَا إِذَا وَرَدُوا مَكَّةَ.

وَكَانَ لَهُ -أَيْضًا- رِفَادَةُ الْحَاجِّ: وَهِيَ طَعَامٌ كَانَ يُصْنَعُ لِلْحَاجِّ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الضِّيَافَةِ.

وَكَانَ قُصَيٌّ فَرَضَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ خَرْجًا تُخْرِجُهُ فِي الْمَوْسِمِ مِنْ أَمْوَالِهَا إِلَىٰ قُصَيٍّ، فَيَصْنَعُ بِهِ طَعَامًا لِلْحَاجِّ يَأْكُلُهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَعَةٌ وَلَا زَادٌ.

كَانَ كُلُّ ذَلِكَ لِقُصَيٍّ، وَكَانَ ابْنُهُ عَبْدُ مَنَافٍ قَدْ شَرُفَ، وَسَادَ فِي حَيَاتِهِ، وَكَانَ عَبْدُ الدَّارِ بِكْرَهُ، فَقَالَ لَهُ قُصَيٌّ فِيمَا يُقَالُ: لَأُلْحِقَنَّكَ بِالْقَوْمِ، وَإِنْ شَرُفُوا عَلَيْكَ. فَأَوصَىٰ لَهُ بِمَا كَانَ يَلِيهِ مِنْ مَصَالِحِ قُرَيْشٍ، وَأَعْطَاهُ دَارَ النَّدْوَةِ، وَاللِّوَاءَ، وَالْقِيَادَةَ،

وَالْحِجَابَةَ، وَالسِّقَايَةَ، وَالرِّفَادَةَ.

وَكَانَ قُصَيٌّ لَا يُخَالَفُ، وَلَا يُرَدُّ عَلَيْهِ شَيْءٌ صَنَعَهُ، وَكَانَ أَمْرُهُ فِي حَيَاتِهِ، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ الدِّينَ الْمُتَّبَعَ، فَلَمَّا هَلَكَ، أَقَامَ بَنُوهُ أَمْرَهُ لَا نِزَاعَ بَيْنَهُمْ.

وَلَكِنْ لَمَّا هَلَكَ عَبْدُ مَنَافٍ نَافَسَ أَبْنَاؤُهُ بَنِي عَمِّهِمْ عَبْدِ الدَّارِ فِي هَذِهِ الْمَنَاصِبِ، وَافْتَرَقَتْ قُرَيْشٌ فِرْقَتَيْنِ، وَكَادَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاعَوْا إِلَىٰ الصُّلْحِ، وَاقْتَسَمُوا هَذِهِ الْمَنَاصِبَ.

فَصَارَتِ السِّقَايَةُ، وَالرِّفَادَةُ، وَالْقِيَادَةُ إِلَىٰ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَبَقِيَتْ دَارُ النَّدْوَةِ، وَاللِّوَاءُ، وَالْحِجَابَةُ بِيَدِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَقِيلَ: كَانَتْ دَارُ النَّدْوَةِ بِالِاشْتِرَاكِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ حَكَّمَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الْقُرْعَةَ فِيمَا أَصَابَهُمْ فَصَارَتِ السِّقَايَةُ، وَالرِّفَادَةُ لِهَاشِمٍ، وَصَارَتِ الْقِيَادَةُ لِعَبْدِ شَمْسٍ.

فَكَانَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ هُوَ الَّذِي يَلِي السِّقَايَةَ، وَالرِّفَادَةَ طُولَ حَيَاتِهِ فَلَمَّا مَاتَ خَلَفَهُ أَخُوهُ الْمُطَّلِبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ جَدُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبَعْدَهُ أَبْنَاؤُهُ حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَالْوَلَايَةُ إِلَىٰ الْعَبَّاسِ.

وَيُقَالُ: إِنَّ قُصَيًّا هُوَ الَّذِي قَسَّمَ الْمَنَاصِبَ عَلَىٰ أَوْلَادِهِ، ثُمَّ تَوَارَثَهَا أَبْنَاؤُهُمْ عَلَىٰ حَسَبِ التَّفْصِيلِ الْمَذْكُورِ.

وَكَانَتْ لِقُرَيْشٍ مَنَاصِبُ أُخْرَىٰ سِوَىٰ مَا ذُكِرَ، وَزَّعُوهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَوَّنُوا

بِهَا دُوَيْلَةً، أَوْ بِتَعْبِيرٍ أَصَحَّ: شِبْهَ دُوَيْلَةٍ، كَانَتْ لَهُمْ مِنَ الدَّوَائِرِ، وَالتَّشْكِيلَاتِ الْحُكُومِيَّةِ مَا يُشْبِهُ فِي عَصْرِنَا هَذَا دَوَائِرَ الْبَرْلَمَانِ، وَمَجَالِسَهَا.

وَهَذِهِ لَوْحَةٌ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاصِبِ:

الْإِيسارُ: أَيْ: تَوْلِيَةُ قِدَاحِ الْأَصْنَامِ لِلِاسْتِقْسَامِ، كَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي جُمَحٍ.

تَحْجِيرُ الْأَمْوَالِ: أَيْ: تَنْظِيمُ الْقُرُبَاتِ وَالنُّذُورِ الَّتِي كَانَتْ تُهْدَىٰ إِلَىٰ الْأَصْنَامِ، وَكَذَلِكَ فَصْلُ الْخُصُومَاتِ وَالْمُرَافَعَاتُ كَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي سَهْمٍ.

الشُّورَىٰ: كَانَتْ فِي بَنِي أَسْدٍ.

الْأَشْنَاقُ: أَيْ: تَنْظِيمُ الدِّيَاتِ وَالْغَرَامَاتِ، كَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي تَيْمٍ.

الْعُقَابُ: أَيْ: حَمْلُ اللِّوَاءِ الْقَوْمِيِّ، كَانَ ذَلِكَ فِي بَنِي أُمَيَّةَ.

الْقُبَّةُ: أَيْ: تَنْظِيمُ الْمُعَسْكَرِ، وَكَذَلِكَ قِيَادَةُ الْخَيْلِ، كَانَ فِي بَنِي مَخْزُومٍ.

السِّفَارَةُ: كَانَتْ فِي بَنِي عَدِيٍّ.

أَمَّا الْحُكْمُ فِي سَائِرِ الْعَرَبِ:

فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ هِجْرَاتِ الْقَبَائِلِ الْقَحْطَانِيَّةِ وَالْعَدْنَانِيَّةِ، وَأَنَّهَا اقْتَسَمَتِ الْبِلَادَ الْعَرَبِيَّةَ فِيمَا بَيْنَهَا:

فَكَانَ مِنْ هَذِهِ الْقَبَائِلِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحِيرَةِ: كَانَتْ تَبَعًا لِمَلِكِ الْعَرَبِ بِالْحِيرَةِ.

وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي بَادِيَةِ الشَّامِ: كَانَ تَبَعًا لِلْغَسَاسِنَةِ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ التَّبَعِيَّةَ كَانَتِ

اسْمِيَّةً لَا فِعْلِيَّةً.

وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْبَوَادِي فِي دَاخِلِ الْجَزِيرَةِ: فَكَانَتْ حُرَّةً مُطْلَقَةً.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَذِهِ الْقَبَائِلَ كَانَتْ تَخْتَارُ لِأَنْفُسِهَا رُؤَسَاءَ يَسُودُونَهَا، وَأَنَّ الْقَبِيلَةَ كَانَتْ حُكُومَةً مُصَغَّرَةً، أَسَاسُ كِيَانِهَا السِّيَاسِيِّ الْوَحْدَةُ الْعَصَبِيَّةُ، وَالْمَنَافِعُ الْمُتَبَادَلَةُ فِي حِمَايَةِ الْأَرْضِ، وَدَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهَا.

وَكَانَتْ دَرَجَةُ رُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ فِي قَوْمِهِمْ كَدَرَجَةِ الْمُلُوكِ، فَكَانَتِ الْقَبِيلَةُ تَبَعًا لِرَأْيِ سَيِّدِهَا فِي السِّلْمِ، وَالْحَرْبِ لَا تَتَأَخَّرُ عَنْهُ بِحَالٍ.

وَكَانَ لَهُ مِنَ الْحُكْمِ، وَالِاسْتِبْدَادِ بِالرَّأْيِ مَا يَكُونُ لِدِكْتَاتُورٍ قَوِيٍّ؛ حَتَّىٰ كَانَ بَعْضُهُمْ إِذَا غَضِبَ غَضِبَتْ لَهُ أُلُوفٌ مِنَ السُّيُوفِ لَا تَسْأَلُهُ فِيمَا غَضِبَ، إِلَّا أَنَّ الْمُنَافَسَةَ فِي السِّيَادَةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْعَمِّ كَانَتْ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْمُصَانَعَةِ بِالنَّاسِ مِنْ بَذْلِ النَّدَىٰ، وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ، وَالْكَرَمِ، وَالْحِلْمِ، وَإِظْهَارِ الشَّجَاعَةِ، وَالدِّفَاعِ عَنِ الْغَيْرَةِ حَتَّىٰ يَكْسِبُوا الْمَحَامِدَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، لَا سِيَّمَا الشُّعَرَاءُ الَّذِينَ كَانُوا لِسَانَ الْقَبِيلَةِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَحَتَّىٰ تَسْمُوَ دَرَجَتُهُمْ عَنْ مُسْتَوَىٰ الْمُنَافِسِينَ.

كَانَ لِلسَّادَةِ وَالرُّؤَسَاءِ حُقُوقٌ خَاصَّةٌ فَكَانُوا يَأْخُذُونَ مِنَ الْغَنِيمَةِ الْمِرْبَاعَ، وَالصَّفِيَّ، وَالنَّشِيطَةَ، وَالْفُضُولَ قَالَ شَاعِرُهُمْ:

لَـكَ الْمِرْبَـاعُ فِينَـا، وَالصَّـفَايَا وَحُكْمُكَ،وَالنَّشِـيطَةُ، وَالْفُضُـولُ

الْمِرْبَاعُ: رُبُعُ الْغَنِيمَةِ، فَكَانَ لِزَعِيمِ الْقَبِيلَةِ وَ سَيِّدِهَا رُبُعُ الْغَنِيمَةِ.

وَالصَّفِيُّ: مَا كَانَ يَصْطَفِيهِ أَيْ: يَخْتَارُهُ لِنَفْسِهِ قَبْلَ الْقِسْمَةِ.

وَالنَّشِيطَةُ: مَا أَصَابَهُ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ بَيْضَةِ الْقَوْمِ.

الْفُضُولُ: مَا فَضَلَ مِنَ الْقِسْمَةِ مِمَّا لَا تَصِحُّ قِسْمَتُهُ عَلَىٰ عَدَدِ الْغُزَاةِ كَالْبَعِيرِ، وَالْفَرَسِ، وَنَحْوِهِمَا.

لَـكَ الْمِرْبَـاعُ فِينَـا، وَالصَّـفَايَا وَحُكْمُكَ،وَالنَّشِـيطَةُ، وَالْفُضُـولُ

وَأَمَّا الْحَالَةُ السِّيَاسِيَّةُ:

فَبَعْدَ ذِكْرِ مَا كَانَ مِنْ حُكَّامِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَجْمُلُ أَنْ تُذْكَرَ جُمْلَةٌ مِنْ أَحْوَالِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ؛ حَتَّىٰ يَتَّضِحَ الْوَضْعُ.

فَالْأَقْطَارُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي كَانَتْ مُجَاوِرَةً لِلْأَجَانِبِ كَانَتْ حَالَتُهَا السِّيَاسِيَّةُ فِي تَضَعْضُعٍ وَانْحِطَاطٍ لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا.

كَانَ النَّاسُ بَيْنَ سَادَةٍ وَعَبِيدٍ، أَوْ حُكَّامٍ وَمَحْكُومِينَ.

فَالسَّادَةُ -وَلَا سِيَّمَا الْأَجَانِبُ-: كَانَ لَهُمْ كُلُّ الْغُنْمِ.

وَالْعَبِيدُ: عَلَيْهِمْ كُلُّ الْغُرْمِ.

وَبِعِبَارَةٍ أَوْضَحَ: إِنَّ الرَّعَايَا كَانَتْ بِمَثَابَةِ مَزْرَعَةٍ تُوَرِّدُ الْمَحْصُولَاتِ إِلَىٰ الْحُكُومَاتِ، وَالْحُكُومَاتُ كَانَتْ تَسْتَخْدِمُهَا فِي مَلَذَّاتِهَا، وَشَهَوَاتِهَا، وَرَغَائِبِهَا، وَجَوْرِهَا، وَعُدْوَانِهَا. أَمَّا النَّاسُ فَكَانُوا فِي عَمَايَتِهِمْ يَتَخَبَّطُونَ، وَالظُّلْمُ يَنْحَطُّ

عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَمَا فِي اسْتِطَاعَتِهِمُ التَّذَمُّرُ وَالشَّكْوَىٰ، بَلْ كَانُوا يُسَامُونَ الْخَسْفَ وَالْجَوْرَ وَالْعَذَابَ أَلْوَانًا سَاكِتِينَ؛ فَقَدْ كَانَ الْحُكْمُ اسْتِبْدَادِيًّا، وَالْحُقُوقُ ضَائِعَةً مُهْدَرَةً.

وَأَمَّا الْقَبَائِلُ الْمُجَاوِرَةُ لِهَذِهِ الْأَقْطَارِ فَكَانُوا مُذَبْذَبِينَ تَتَقَاذَفُهُمُ الْأَهْوَاءُ وَالْأَغْرَاضُ، مَرَّةً يَدْخُلُونَ فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَمَرَّةً يَدْخُلُونَ فِي أَهْلِ الشَّامِ، وَكَانَتْ أَحْوَالُ الْقَبَائِلِ فِي دَاخِلِ الْجَزِيرَةِ مُفَكَّكَةَ الْأَوْصَالِ، تَغْلِبُ عَلَيْهَا الْمُنَازَعَاتُ الْقَبَلِيَّةُ، وَالِاخْتِلَافَاتُ الْعُنْصُرِيَّةُ، وَالدِّينِيَّةُ حَتَّىٰ قَالَ نَاطِقُهُمْ:

فَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ! وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُلْكٌ يَدْعَمُ اسْتِقْلَالَهُمْ، أَوْ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي وَقْتِ الشَّدَائِدِ.

أَمَّا حُكُومَةُ الْحِجَازِ: فَقَدْ كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهَا الْعَرَبُ نَظْرَةَ تَقْدِيرٍ وَاحْتِرَامٍ، وَيَرَوْنَهَا قَادَةَ وَسَدَنَةَ الْمَرْكَزِ الدِّينِيِّ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْحُكُومَةُ فِي الْحَقِيقَةِ خَلِيطًا مِنَ الصَّدَارَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَالْحُكُومِيَّةِ، وَالزَّعَامَةِ الدِّينِيَّةِ.

حَكَمَتْ بَيْنَ الْعَرَبِ بِاسْمِ الزَّعَامَةِ الدِّينِيَّةِ، وَحَكَمَتْ فِي الْحَرَمِ، وَمَا وَالَاهُ بِصِفَتِهَا حُكُومَةً تُشْرِفُ عَلَىٰ مَصَالِحِ الْوَافِدِينَ إِلَى الْبَيْتِ، وَتُنَفِّذُ حُكْمَ الشَّرِيعَةِ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ فِيهِمْ.

وَكَانَتْ لَهَا مِنَ الدَّوَائِرِ، وَالتَّشْكِيلَاتِ مَا يُشَابِهُ دَوَائِرَ الْبَرْلَمَانِ فِي هَذَا

الْعَصْرِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْحُكُومَةَ كَانَتْ ضَعِيفَةً لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ حَمْلِ الْعِبْءِ كَمَا ظَهَرَ ذَلِكَ يَوْمَ غَزْوِ الْأَحْبَاشِ.

الْحَالَةُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا النَّاسُ أَيَّامَ النَّبِيِّ ﷺ وَحَالَ بِعْثَتِهِ كَانَتْ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ الْمَذْكُورِ، النَّاسُ فِي عَمَايَتِهِمْ يَتَخَبَّطُونَ، وَفِي ضَلَالِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَعَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَىٰ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هُمْ نَاكِبُونَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمُ الظَّلَمَةُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي فَسَادٍ دِينِيٍّ يَعْبُدُونَ فِيهِ الْأَوْثَانَ، وَيُقَدِّسُونَ الْأَصْنَامَ، وَيَنْحَرُونَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ جَلَّوَعَلَا إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ مِنَ الْخُرَافَاتِ الَّتِي سَيْطَرَتْ عَلَىٰ الْعُقُولِ بِالْأَوْهَامِ، وَغَزَتِ الْأَحْلَامَ حَتَّىٰ صَارُوا فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ.

جامعة منهاج النبوة www.menhag-un.com

مِنْ أَشْهَرِ حُرُوبِ الْعَرَبِ

وَالْحُرُوبُ بَيْنَهُمْ كَانَتْ عَلَىٰ قَدَمٍ وَسَاقٍ؛ وَمِنْ أَشْهَرِ حُرُوبِهِمْ: حَرْبُ الْفِجَارِ: وَكَانَ عَلَىٰ هَذِهِ الْحُرُوبِ الْكُبْرَىٰ تَقَعُ غَارَاتٌ فَرْدِيَّةٌ بَيْنَ الْقَبَائِلِ تَكُونُ أَسْبَابُهَا شَخْصِيَّةً أَحْيَانًا، أَوْ لِطَلَبِ الْعَيْشِ أَحْيَانًا أُخْرَىٰ؛ إِذْ كَانَ رِزْقُ بَعْضِ الْقَبَائِلِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ فِي حَدِّ سُيُوفِهَا؛ لِذَلِكَ مَا كَانَتِ الْقَبِيلَةُ تَأْمَنُ أَنْ تَنْقَضَّ عَلَيْهَا قَبِيلَةٌ أُخْرَىٰ فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ؛ لِتَسْلُبَ أَنْعَامَهَا، وَمُؤَنَهَا، وَتَدَعَ دِيَارَهَا خَاوِيَةً بَلَاقِعَ، كَأَنْ لَمْ تُسْكَنْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ.

فَبَعْضُ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ مَا كَانَ هُنَالِكَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي عَمَّ جَمِيعَ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ؛ فِي حَالَتِهِمُ الدِّينِيَّةِ، وَفِي حَالَتِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ.

www.menhag-un.com

الْحَالَةُ الِاقْتِصَادِيَّةُ قَبْلَ الْبِعْثَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ

وَأَمَّا حَالَتُهُمْ الِاقْتِصَادِيَّةُ: فَإِنَّهُ تَغْلِبُ عَلَىٰ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الصَّحَارَىٰ الْوَاسِعَةُ الْمُمْتَدَّةُ، وَهَذَا جَعَلَهَا تَخْلُو مِنَ الزِّرَاعَةِ إِلَّا فِي أَطْرَافِهَا خَاصَّةً فِي الْيَمَنِ وَالشَّامِ، وَبَعْضِ الْوَاحَاتِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْجَزِيرَةِ، كَانَ يَغْلِبُ عَلَىٰ الْبَادِيَةِ رَعْيُ الْإِبِلِ، وَالْغَنَمِ، وَكَانَتْ تَنْتَقِلُ الْقَبَائِلُ بَحْثًا عَنْ مَوَاضِعِ الْكَلَأِ، وَكَانُوا لَا يَعْرِفُونَ الِاسْتِقْرَارَ إِلَّا فِي مَضَارِبِ خِيَامِهِمْ.

أَمَّا الصِّنَاعَةُ، فَكَانُوا أَبْعَدَ الْأُمَمِ عَنْهَا، وَكَانُوا يَأْنَفُونَ مِنْهَا، وَيَتْرُكُونَ الْعَمَلَ فِيهَا لِلْأَعَاجِمِ وَالْمَوَالِي، حَتَّىٰ عِنْدَمَا أَرَادُوا بُنْيَانَ الْكَعْبَةِ اسْتَعَانُوا بِرَجُلٍ نَجَا مِنَ السَّفِينَةِ الَّتِي غَرِقَتْ بِجُدَّةَ ثُمَّ أَصْبَحَ مُقِيمًا فِي مَكَّةَ، وَإِذَا كَانَتِ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ حُرِمَتْ مِنْ نِعْمَتَيِ الزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ، فَإِنَّ مَوْقِعَهَا الِاسْتِرَاتِيجِيَّ بَيْنَ إِفْرِيقِيَّةَ وَشَرْقِ آسِيَا جَعَلَهَا مُؤَهَّلَةً لِأَنْ تَحْتَلَّ مَرْكَزًا مُتَقَدِّمًا فِي التِّجَارَةِ الدَّوْلِيَّةِ آنَذَاكَ، كَانَ الَّذِينَ يُمَارِسُونَ التِّجَارَةَ مِنْ سُكَّانِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ هُمْ أَهْلُ الْمُدُنِ لَاسِيَّمَا أَهْلُ مَكَّةَ، كَانَ لَهُمْ مَرْكَزٌ مُمْتَازٌ فِي التِّجَارَةِ، وَكَانَ لَهُمْ بِحُكْمِ كَوْنِهِمْ أَهْلَ الْحَرَمِ مَنْزِلَةٌ فِي نُفُوسِ الْعَرَبِ، فَلَا يَعْرِضُونَ لَهُمْ وَلَا لِتَجَارَتِهِمْ بِسُوءٍ.

وَقَدِ امْتَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

كَانَ لِقُرَيْشٍ رِحْلَتَانِ عَظِيمَتَانِ شَهِيرَتَانِ: رِحْلَةُ الشِّتَاءِ إِلَىٰ الْيَمَنِ، وَرِحْلَةُ الصَّيْفِ إِلَىٰ الشَّامِ، يَذْهَبُونَ فِيهَا آمِنِينَ، بَيْنَمَا النَّاسُ يُتَخَطَّفُونَ مِنْ حَوْلِهِمْ، هَذَا عَدَا الرِّحْلَاتِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا طُوَالَ الْعَامِ.

كَانَتِ الْقَوَافِلُ تَحْمِلُ الطِّيبَ وَالْبَخُورَ، وَالصَّمْغَ وَاللِّبَانَ وَالتَّوَابِلَ وَالتُّمُورَ، وَالرَّوَائِحَ الْعِطْرِيَّةَ وَالْأَخْشَابَ الذَّكِيَّةَ، وَالْعَاجَ وَالْأَبَنُوسَ وَالْخَرَزَ وَالْجُلُودَ وَالْبُرُودَ الْيَمَنِيَّةَ وَالْأَنْسِجَةَ الْحَرِيرِيَّةَ وَالْأَسْلِحَةَ وَغَيْرَهَا مِمَّا يُوجَدُ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ أَوْ يَكُونُ مُسْتَوْرَدًا مِنْ خَارِجِهَا، ثُمَّ تَذْهَبُ بِهِ إِلَىٰ الشَّامِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ تَعُودُ مُحَمَّلَةً بِالْقَمْحِ أَوِ الْحُبُوبِ وَبِالزَّبِيبِ أَوِ الزَّيْتُونِ وَالْمَنْسُوجَاتِ الشَّامِيَّةِ وَغَيْرِهَا.

اشْتَغَلُوا بِالتِّجَارَةِ وَكَانَ نَشَاطُهُمْ فِي الْبَرِّ وَفِي الْبِحَارِ، وَتَعَامَلُوا بِالرِّبَا، وَكَانَ التَّعَامُلُ بِالرِّبَا مُنْتَشِرًا فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَعَلَّهُمْ دَبَّ إِلَيْهِمْ هَذَا الدَّاءُ مِنَ الْيَهُودِ، كَانَ يَتَعَامَلُ بِهِ الْأَشْرَافُ وَغَيْرُهُمْ، وَكَانَتْ نِسْبَةُ الرِّبَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةٍ فِي الْمِئَةِ.

وَكَانَ لِلْعَرَبِ أَسْوَاقٌ مَشْهُورَةٌ: عُكَاظٌ وَمِجَنَّةُ وَذِي الْمَجَازِ، وَيُذْكَرُ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يُقِيمُونَ بِعُكَاظَ هِلَالَ ذِي الْقَعْدَةِ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ مِنْهُ إِلَىٰ مِجَنَّةَ بَعْدَ مُضِيِّ عِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، فَإِذَا رَأَوْا هِلَالَ ذِي الْحِجَّةِ ذَهَبُوا إِلَىٰ ذِي الْمَجَازِ، فَلَبِثُوا فِيهَا ثَمَانِيَ لَيَالٍ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ عَرَفَةَ، وَكَانُوا لَا يَتَبَايَعُونَ فِي عَرَفَةَ، وَلَا فِي أَيَّامِ مِنًى، حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَأَبَاحَ لَهُمْ ذَلِكَ.

اسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الْأَسْوَاقُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَىٰ حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ ثُمَّ دَرَسَتْ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأَسْوَاقُ لِلتِّجَارَةِ فَحَسْبُ، بَلْ كَانَتْ أَسْوَاقًا لِلْأَدَبِ وَالشِّعْرِ وَالْخَطَابَةِ، يَجْتَمِعُ فِيهَا فُحُولُ الشُّعَرَاءِ، وَمَصَاقِيعُ الْخُطَبَاءِ، وَيَتَبَارَوْنَ فِيهَا فِي ذِكْرِ أَنْسَابِهِمْ وَمَفَاخِرِهِمْ وَمَآثِرِهِمْ، وَبِهَذَا كَانَتْ ثَرْوَةً كُبْرَىٰ لِلُّغَةِ وَالْأَدَبِ، إِلَىٰ جَانِبِ كَوْنِهَا ثَرْوَةً تُجَارِيَّةً.

فَهَذَا بَعْضُ أَطْرَافٍ مِنْ حَالَتِهِمْ الِاقْتِصَادِيَّةِ، وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ كُلُّهُ يُمَهِّدُ لِمَعْرِفَةِ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدْ بُعِثَ ﷺ فِي هَذَا الْوَضْعِ، وَكُلِّفَ بِإِصْلَاحِهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ بِاللهِ الْعَزِيزِ الْمَجِيدِ، وَصَرْفِ الْعِبَادَةِ إِلَىٰ وَجْهِهِ وَحْدَهُ، فَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ.

منهاج النبوة
www.menhag-un.com